صورة نوال السعداوي كما بدت في «مذكراتي في سجن النساء»

الأنثى، القوّية، الكاتبة والإنسانة

فاطمة بري بدير*

لا بد في البداية من الإشارة إلى أن متن هذا البحث، يتناول بالتحليل النقدي صورة المرأة «الإنسانة» كما بدت في كتاب **نوال السعداوي «مذكراتي في سجن النساء»**. وهو الكتاب الذي يقدّم تجربة حيّة وواقعية لصاحبته الباحثة والأدبية، التي سردت ضمنه تفاصيل ومشاعر واعترافات، بشكل حقيقي، لا يترك مجالاً للتأويل أو الأخيلة أو الإحالات على أمور يتبنّاها بطل روائي غامض؛ لأن الكتاب ليس رواية ولا قصة، بل بكل بساطه كتاب مذكرات، وهي كلمة تفرض علينا التعاطي معها بشكل مختلف عمّا لو كان المضمون نصاً يحتمل التأويل... ففي النص الإبداعي أو النظري أو البحث مثلاً، يحق للناقد أن يعمل على تفكيك رؤية الكاتب ليبحث عن الأسباب والعلل التي أدّت إلى تبنّيه مواقف معينة، وقد يتفّق معه وقد يختلف. أما هنا (وفي كل مرة نقرأ فيها مذكرات أحدٍ ما..) فإن الناقد يصبح مكبّل اليدين أمام الحقيقة وسياق الأحداث؛ لأنه لا يملك إلاّ الاستماع أو القراءة... وعلى هذا الأساس، فإن الصورة التي نطالعها في هذا الكتاب للكاتبة المصرية المذكورة، هي صورة مغايرة جداً لصورتها التي تطنُّ في أذهان الكثيرين. عن كتبها في الدراسات والأبحاث وما يخصّ بعض النظريات والمواقف الاجتماعية والدينية التي تتبنّاها...

وإذا كانت الصورة الشائعة والمستهلكة عن **نوال السعداوي**، تُضفي عليها دوماً طابعاً من التحدّي والشراسة والاستهزاء بالدين

* كاتبة إعلامية لبنانية – بيروت

والعناد، ما يسبب لها العداوة وكره الآخرين، فإن الأمر هنا على النقيض! لأن **نوال السعداوي** في مذكراتها عن سجن النساء، رسمت صورة الإنسانة المظلومة المتعلّمة والمرهفة، المضطهدة من قبل السلطة والحكومة، الهادئة في تعاملها مع الناس.. والمدافعة دوماً عن كل خطأ سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي... إلخ؛ بحيث نصل في ختام الكتاب إلى نتيجة مؤدّاها، أن قارئ مذكرّاتها سيحبّها وسيعجب بشخصيتها وأسلوبها، بخاصة إن لم يكن مطلعاً من قبل على نتاجاتها الأخرى من الدراسات والأبحاث، وخصوصاً أيضاً أن صورتها «كبطلة» في كتاب مذكراتها، يأتي على خلفية عدائها الفكري والسياسي والاجتماعي مع الرئيس المصري الراحل أنور السادات، بطل السلام مع «إسرائيل» و«بطل كامب ديفيد» وما أصدره في فترته الأخيرة من قرارات صارمة وظالمة، ومنها قرار «التحفظ» على مئات الشخصيات والفعاليات الفكرية والثقافية والإعلامية في مصر؛ حيث كانت **السعداوي** إحدى «المتحفظ عليهم»، ومن هنا تبدأ حكايتها مع السجن الذي بدأ يوم الأحد ٦ سبتمبر ١٩٨١...

في مقاطع تقديمية، تعرّف الكاتبة بنفسها وشخصيتها، فتصفها بالقول: «**إنني امرأة حرّة في زمن لا يريدون فيه إلاّ الجواري والعبيد، ولدتُ بعقلٍ يفكّر في زمنٍ يحاولون فيه إلغاء العقل... منذ الطفولة جرت الحرية في عروقي مع الدم. رأيتُ أمي متمرّدة ترفض سلطة أبيها العسكرية، وتثور على زوجها إذا ارتفع صوته في البيت... وأخي كان أكبر مني وحين رفع يده عالياً ليصفعني رفعت يدي أعلى من يده وصفعته. ولم يكرّرها**».

هل هي مسألة مزاج أنثوي غير أليف؟ التربية أم البيئة أم ظروف النشأة؟ أم لعلها كل هذه الأسباب مجتمعه؟ قد يقول قائل هنا «امرأة مسترجلة» لكنها امرأة تمسك قرارها بيدها ولا تسكت عن ظلم الآخرين حتى لو كان مصدر هذا الظلم الأب أو الأخ أو حتى الزوج! كما نفهم من قولها في ما بعد «**حين أراد زوجي الأول أن يُلغي وجودي ألغيت وجوده من حياتي! وحين صاح زوجي الثاني أنا أو كتاباتي قلت كتاباتي!! وانفصلنا.. وحين انتفض وزير الصحة غاضباً: الطاعة أو الفصل! قلت: الفصل وفقدتُ منصبي**»!...

من شأن هذه الكلمات الاعترافية أن تولّد شعورين مختلفين عند من يقرأها أو يسمعها. ففي البداية ستُتهم صاحبتها كما قلنا «بالاسترجال» وبتساؤلاتٍ من نوع «من تعتقد نفسها؟ وعلام كل هذا العناد؟...»

لكننا في الشعور الثاني قد نحسدها على ثبات موقفها وجرأتها وقوة شخصيتها واعتدادها بنفسها. فكم من النساء يتنازلن حتى الذل أمام الزوج؟

ولكم من النساء أو الزوجات يسكتن حتى الأذى أمام أزواج آخرين؟ ولكم من النساء والرجال مجتمعين يقبّلون اللحى والأيادي حتى تسير أمور العمل وتستمر؟!... ولن أتكلم عن خيار الفصل!! لأن معظمنا مستعد للسكوت والتغاضي أمام خسارة المهنة أو الوظيفة أو المصلحة؟!...

الكاتبة تفتح عقولنا وضمائرنا لتوقظنا على هذا الواقع، وهي نفسها تسترجع ذات مرة صوت «زميلها الأديب الكبير» كما كتبت ولم تسمّه حين قال لها: «**لستُ إلاّ موظفاً**»، وهذا ما يجعلها تتساءل بغضب وحنق وثورة: «**الأديب الموظف! والمفكر موظف والفيلسوف موظف.. لذلك ليس عندنا أدباء أو مفكرون أو فلاسفة! ما الفرق بين ضابط المباحث والأديب الموظف.. كلاهما ينفّذ الأوامر! كلاهما لا يريد أن يفقد راتبه الشهري، أو وظيفته**».[١]

أليست جرأة ما فوقها جرأة في وضع الإصبع الجرح؟

لا تجد الكاتبة حرجاً من الاعتراف والتصريح بهذا الواقع الاجتماعي والسياسي السائد، ليس في بلدها مصر فحسب، بل في معظم دويلاتنا وأنظمتنا التي تتقن سياسة تطويع الشعوب، وبالتالي لا يعود هناك فرق بين الأديب والمفكر والفيلسوف وضابط المخابرات.

ربما من أجل واقع مترهلٍ ومخادع لم تدخل نوال السعداوي في حياتها «**لعبة السياسة ولا الأحزاب ولا الصحافة ولا الانتخابات ولا الجمعيات النسائية برئاسة زوجات الحكّام**» كما تقول حرفياً[٢] بل أكثر من ذلك كله، تقول: «**حتى مهنة الطب هجرتها. رأيت الأطباء يشترون العزب ويشيّدون العمارات بدم المرضى والفقراء...**».

ملامح القوّة والصلابة

تبدو صورة المرأة هنا مليئة بنوع من التفرد في الاستقلالية، فنحن أمام نموذج نسائي لا يشبه معظم النساء. هو نموذج أنثوي يفخر دوماً بصلابته وقوّته الجسدية والمعنوية والعقلية ولا شيء غيرها...

والكاتبة نفسها تشرح هذه النقطة بالتحديد، حينما تسترجع ذكرياتها الجامعية تقول:

«**في الجامعة حين كانت زميلاتي الطالبات يتفاخرن بنعومة أيديهن وصغر أقدامهن ورقة أجسادهن الصغيرة وارتخاء عضلاتهن الضعيفة. كنت أفخر بقامتي الفارعة وعضلاتي القوية المشدودة. كيف حدث ذلك لا أدري! كنت أحس في أعماقي عقلاً يرفض**

الضعف كانوثة أو الأنوثة كضعف. لم أضع أبداً مساحيق التجميل على وجهي. لكني تعوّدت أن أغسل وجهي كل صباح، وأسناني بالفرشاة والمعجون، وأمارس رياضتي الصباحية»...[٣]

شخصية **نوال السعداوي** «العقلية» تكاد تتغلّب على كل صفات الأنثى المعهودة، فهي امرأة تكره الضعف، لا تستعمل مساحيق التجميل، تمارس الرياضة حتى في أحلك أيام السجن، وهي جعلت من فترة ممارسة الرياضة طقساً يومياً بين السجينات.. وكأنها تبحث دوماً عن غذاء مختلف جداً للعقل والوعي والقوة.. تفضّل القامة الفارعة وعضلات الأنثى القوية على نعومة الأيدي والأقدام... تسخر من الذين يرددون مقولات مستهلكة دون التفكير بمضمونها وأبعادها (كما حصل مع شخصيات السجن أو شخصيات المباحث والتحقيق) وفي كثير من الأحيان تتخلى عن قوة التفكير الهادئ إلى قوة العمل الثوري، السجن لم يفقدها الأمل: «**في يوم من الأيام هددت بأن أحرق العنبر والسجن كله بعود كبريت**»[٤] وهي لا تقول هذا الكلام عن تهور أو يأس، بل على النقيض، لإعلاء حركة الاحتجاج الأنثوي، فعندما كانت أمور السجن تسوء وتتدهور الأحوال وتأتي أخبار الخطر والسوء، كانت حالة التشاؤم والحزن وربما الخوف تسود كل المسجونات اللواتي كن يجلسن ساكتات واجمات متشائمات كما تقول، وهذا أمر لا يروق لها أبداً ولا يتلاءم مع شخصيتها، ماذا يحدث؟ «**فإذا بشيء يهب فجأة منتصباً داخلي كالمارد، غاضباً ثائراً على الوجوم والاستسلام للكآبة والحزن.. متمردة على الجمود وعدم الحركة.. يقاوم الانهزام.. والتشاؤم.. لأقول: لن نموت.. وإذا متنا فلن نموت ساكتات، لن نمضي في الليل دون ضجة، لابد أن نغضب ونغضب.. لن نموت دون ثورة!!..**»[٥]

قوة الشخصية هذه تجلّت بنوع من الإصرار والعناد القويين على تنفيذ الرغبة التي تريدها السعداوي، وقد تكون رغبتها محض كلمات أو تعليقات أو ردود لا تسكت عليها أو عنها كما حصل في السجن وأمام المحقق، وقد تكون رغبتها فعلية تتمثل في الإقدام على فعلٍ ما، وهو ما عرفناه من سردها لموقفها العنادي أثناء نقلها من منزلها إلى السجن، ومن سجنها إلى مركز التحقيق؛ حيث كانت في كل مرة تصرّ على الجلوس بالطريقة التي تفضلها وتستحسنها.. وهذا أمر قليل الحدوث؛ لأننا لو حاولنا أن ننظر إليه بشيء من التأمل والتمعن لأدركنا أن معظم النساء اللواتي يجرّبن الاعتقال يكنّ في وضع مشلول بالكامل تقريباً، من حيث عنصر المفاجأة والمباغتة والصدمة والحزن وبالتالي، لا يفكرّ أي رجل ولا أي امرأة بكيفية جلوسه وطريقة اقتياده والتفاصيل الأخرى.. لذلك أجد الامر استثنائياً ومردّ هذا الاستثناء يعود إلى شخصية وحزم وقوة المرأة التي نتحدث عنها،

وربما يعترض قائل هنا بأن ظرفها كان جيداً، والذين اعتقلوها كانوا أكثر تعقلاً من آخرين، لا يسمحون بأي اعتراض فيضربون ويذلون ويهينون المعتقل أكثر في ما لو حاول العناد أو التحدي.. «**رفضتُ الجلوس بين رجلين في هذا الحر الشديد، جسدان غريبان ينزّان بعرق الكراهية. منذ البداية لابد أن أفرض إرادتي**». !!؟(٦)

هذا هو الشعار العقلي والسلوكي والفعلي الذي تسعى له **نوال السعداوي** في معظم ظروف حياتها، «**لابد أن أفرض إرادتي**» شعار يلخص الكثير من جوانب شخصيتها وتفكيرها ونظرتها أو تعاطيها بمعظم الأمور.

هذا الإصرار على فرض الإرادة سيتكرّر مع نفس المشهد ونفس الحادثة أيضاً، لكن بعد أسابيع، سيطلب منها الضابط أن تجلس بينه وبين السائق (حتى لا تهرب؟!!) وسترفض وسيتكرر المشهد مع كلماته أيضاً. الضابط يقول: «هذه هي الأوامر» وهي تجيب بعناد: «لن أجلس إلا بجوار النافذة» يبدو عليه الإصرار. فتواجهه بإصرار أشد، وينتصر إصرارها على إصراره وتجلس أمام النافذة لتقول: «**انتصار بسيط صغير.. لكنه هام.. فأنا أمارس إرادتي رغم كل شيء!!**»(٧)

فها هي تعود للحديث من جديد، عن «الإرادة» وحرية هذه الإرادة.. في كل زمان ومكان. حتى لو كان المكان هو السجن والزمان هو فوضى السياسة والاعتقال..

الطبيبة الكاتبة والمرأة القوية: فلاّحة الأصل! والهوى والمزاج أيضاً

قد يعتقد بعض الناس أن الأدباء والكتّاب والباحثين هم مجموعة من ميسوري الحال، الذين أدى بهم رخاؤهم إلى الجلوس الدائم للتأمل والتمعن في ما حولهم، وبالتالي فهم لا يعملون عملاً مجداً.. لا يتعبون، لا يكدّون.. يجلسون أمام مكاتبهم، يرتشفون قهوتهم.. يتأملون حلقات دخان سجائرهم.. ويكتبون!!.

هذا عن الرجال، فما بالكم بالنساء؟؟...

ستتوسع المخيلة أكثر، الكاتبات غاويات رفاهية ونعومة.. والأصابع التي تعانق الأقلام والصفحات مدى ساعات يومها، هي أصابع لا تجيد التعامل مع أي شأن آخر.. وقد تجد هذه النظرية بعض الاستثناءات عند كتّاب أو كاتبات عُرفن بنصوصهن المثقلة ألماً وتضحيات وهموماً... الخ... لكن مع **نوال السعداوي**، قد تكون الصورة مغايرة.. وكلاسيكية.. لامرأة متعلّمة، درست الطب في مرحلة مبكرة.

استلمت وظائف ومناصب عدة.. تدلّل نفسها على طريقتها الخاصة.. لكن سيكون من

المفاجئ أن نسمع لها أو نقرأ حكايتها وهي تحكي عن علاقتها بالأرض والتراب والفلاحين... الخ. ثمة ملحوظة مهمة هنا وهي أن الكثير من المبدعين أو فلنقل المشهورين، تعود جذورهم إلى البيئة الفلاحية، لكنهم حين الوصول إلى مراتب الشهرة والأضواء، يمسحون هذه الأجزاء من ذاكرتهم وكأنهم يخجلون منها.. الصورة مغايرة مع **نوال السعداوي** وهي الطبيبة والمثقفة والجامعية، التي تزيح الستارة عن شيء من أهم خصال شخصيتها أيضاً، علاقتها بهذه البيئة.

«ملمس الفأس في يدي له لذة، وحركة ذراعي صاعدة هابطة. أضرب الأرض بكل قوتي. العرق يتصبّب غزيراً. متعة كالنشوة تغزو جسدي وعقلي. منذ الطفولة لم أمسك فأساً. كنت أتسابق إليه أنا وأخي، كان أكبر مني، وساقاه أطول من ساقيّ، لكني كنت أسبقه وآخذ الفأس. أحبّ هذه الحركة العنيفة لكل عضلات الجسم، وأحب رائحة بطن الأرض حين أشقّها، والبذور أضعها بين الشقوق، الماء يجري في القناة الطويلة له رائحة الطمي... والحقول الخضراء الممتدة.. والزرع الأخضر يلمع تحت الشمس.. كل إجازة صيف نسافر إلى قريتنا كفر طحلة أقفز من الفرح أنا واخوتي، وتظل طوال الليل نحلم بالحقول وركوب الحمير ورائحة الخبيز والفطير وجدّتي وعمّاتي»...[٨]

ذكرت الكاتبة أشياء عن تلك المرحلة، وعن خالتها التي كانت تصرخ كلما رأتها تمشي بحذائها المتسخ فوق السجادة العجمية المزركشة، لتمسح بفوطة صفراء كل شيء تدوسه أو تلمسه، هذه الخالة التي كانت تسكن **«فيلا كالقصر تحوطها الحديقة الكبيرة وكلب ضخم ينبح طوال الوقت»**،[٩] كانت الكاتبة تكرهها وبسببها ربما كرهت القصر والسجاجيد والأبواب اللامعة، وجاء كره الخالة ليخلي المكان لحب آخر، حبّ العمة الفقيرة والبسيطة.. **«أحب عمتي الفلاحة والحصيرة على الأرض، أدوس عليها بحذائي، أرقد عليها وأتمرّغ في التراب ولا يصرخ أحد. والأبواب بغير أكر تلمع، أمسكها بيدي فلا يمسحها أحد بفوطة صفراء.. والحمارة أقفز فوقها وأسوقها إلى الحقل.. تسير بي على حافة القناة وتجري دون أن أقع»**.[١٠]

في السجن نكشت **نوال السعداوي** الأرض الخصبة المهجورة، وخصصت حوضاً للعناية الدائمة به، وكلما رأت الفأس أسرعت إليه لتعمل به حيث **«تكشف الأرض عن بطنها الخصبة السوداء، أساويها بكفيّ. أحس نبضها، دافئة تحت يدي كذراعي وساقي. رائحتها كرائحتي... أنثر البذور من حولي ثم أغطيها بالرماد كما أغطي جسمي. وأجري لأملأ الجردل وأسقيها حتى ترتوي»**.[١١]

ويصل الأمر حدّ الإضحاك حين تطلب من إحدى السجينات بذور عنب وبرتقال، فتشهق السامعات بكل خوف وهن يتساءلن عما إذا كن سيمكثن في السجن حتى تطرح الأرض عنباً وبرتقالا؟!

لكن نوال، ذات الأصول الفلاحية والهوى الفلاحي تجيب من يقول لها إن الزراعة بلا محصول بلا لذة ولا معنى، «**الزراعة عندي هدف في حد ذاتها، ولها لذة**»...

هذه الفلاّحة تفهم السياسة جيداً

ذكرت **نوال السعداوي** – كما أشرنا في بداية البحث – أنها «**لم تدخل حياتها لعبة السياسة ولا الأحزاب ولا الصحافة ولا الانتخابات**»...[١٢] وأكثر من ذلك اعترفت بكرهها للسياسة منذ كانت طفلة، وشابة، وأن أمور السياسة لم تكن تشغلها ولا تثيرها مانشيتات الصفحة الأولى لأي جريدة؛ لأنها كانت مشغولة بالفن والأدب، لكنها اكتشفت في ما بعد أن الفن والأدب لا يوجدان بغير الصدق، والصدق لا يمكن أن يوجد بغير الحرية. والحريّة لا توجد بغير الثورة.

توجز الكاتبة رأيها بالسياسة بالقول: «**السياسة نفاق، كذب، ورجال السياسة ألوانهم مخطّطة، كرجال الصحافة. أخطر رجال السياسة والصحافة هم الذين يعيشون في كل عهد، يتربّعون على عروش الصحافة والسياسة والفن والأدب والطب ثابتين ثبات الشمس في مركزها!**[١٣]

وقد ذكرت الكاتبة في مذكراتها كيف شاركت ذات مرة في اجتماع للاتحاد الاشتراكي، ضمن مئات من أعضاء النقابات المهنية، كان ذلك عام ١٩٧٠ و**عبد الناصر** كان لا يزال حياً، كان المشاركون أكثر من ٣٠٠ شخص من الأطباء والمحامين والمهندسين وغيرهم وقد جلسوا أكثر من ساعتين بانتظار ظهور أحد على المنصة الضخمة في القاعة الرئيسة للاتحاد الاشتراكي... وحين تساءلت أُجيبت بهدوء من تعّود على هذه الحال: إنهم يتأخرون هكذا دوماً... ويومها، جاء السادات الذي كان نائباً لرئيس الجمهورية وجلس إلى المنصة وبدأ الاجتماع دون ذكر كلمة واحدة لتبرير أو تفسير ذلك التأخير.. بعد الاجتماع لم تسكت **نوال السعداوي** ووجّهت كلامها **للسادات** والمشاركين عن الجهود والوقت الضائعين وعن خسائرهما الاقتصادية.. لكن المعنيين لم يردّوا عليها أبداً وتجاهل الكل موضوع التأخير، وقبل انتهاء الاجتماع وُضعت يدٌ قوية على كتفها لمسؤول كبير من الداخلية دعاها لمسؤول أكبر منه وقالا لها: نحن في معركة ولا نريد أي نقد الآن.؟![١٤]

قالت الكاتبة: لكن المعركة تتطلب النقد الموضوعي من أجل عدم تكرار الهزيمة! فاندرج اسمها في قائمة المغضوب عليهم كما قالت...

الشخصية السياسية عند **نوال السعداوي** جعلتها ترفض أن تكون زوجة الحاكم هي السيدة الأولى. واعتبرت الأمر تقليداً أمريكياً لا يعمم عندنا؛ لأنه يضع وظيفة زوجة الحاكم فوق كل الوظائف الأخرى. وهناك نساء لهن جهود أكبر من زوجة الحاكم، ولهن منزلة في قلوب وعقول الشعب أكثر منها، فالمفروض أن تكرم المرأة بسبب جهودها وليس؛ لأنها زوجة رجل له نفوذ وسلطة.

وكنوع من المشاركة السياسية بالفعل وليس بالقول، نفهم من سياق المذكرات أن الكاتبة كانت تطوّعت مع الفدائيين الفلسطينيين في الأردن بعد الهزيمة، وفي القنال الإسماعيلية كذلك.. من خلال ما تقوله لها إحدى الموجودات في السجن وهي تحدثها عن إعجابها بشخصيتها ودورها وكتابتها ومواقفها...[١٥]

وقد اتهمت السلطة المصرية الكاتبة بأنها هاجمت معاهدة كامب دايفيد خلال مشاركتها في مؤتمر كوبنهاجن العالمي للمرأة في يوليو من العام ١٩٨٠. ونفت السعداوي الاتهام؛ لأن المعاهدة لم تكن موضوع نقاش في المؤتمر المذكور، لكنها تحدثت عن نشأة دولة إسرائيل تاريخياً وكيف قاد النظام الطبقي الأبوي إلى النظام العبودي ثم الإقطاعي ثم الرأسمالي وكيف لعب الاستعمار دوماً في نشوء إسرائيل. كل هذا الكلام جعل أحد الصحافيين الإسرائيليين يثور ويحاول مقاطعة كلامها وإحداث فوضى في الاجتماع، فتم طرده من القاعة.. ولما سئلت من قبل صحافي إسرائيلي عن الموضوع قالت: «**إن نشوء إسرائيل كان غير عادل. فهي نشأت بقوة السلاح والقتل لإبادة شعب فلسطين رجالاً ونساءً..**»[١٦]

وتساءلت **نوال السعداوي** عمّا إذا كان هناك من دور لزوجة السادات ضدها بعد العودة من كوبنهاغن؟ لأنها على ما يبدو استاءت جداً وانزعجت من آرائها وتعليقاتها وتسببها بطرد صحافي إسرائيلي من قاعة المؤتمر...

وإذا كانت آراء ومواقف الكاتبة واضحة من المجتمع والسياسة، إلاّ أن موقفها من الدين والمتدينين لم يبد صريحاً وواضحاً في مذكراتها هذه، باستثناء ما نقلته عن أجواء وعقليات بعض المسجونات معها من المنقبات وما ذكرته عن فعالهن وشخصياتهن، ربما هي جملة واحدة قالتها السعداوي «**ليس هناك إسلام واحد، كل دولة تفسر الإسلام كما تشاء**» وهي ترد على رجل البوليس الذي قال لها: إن المرأة في الإسلام ناقصة عقل ودين، أم أنك ضد الإسلام؟؟.[١٧]

نوال السعداوي الكاتبة..والكتابة..

أصل الآن إلى واحدة من السمات الأساسية المهمة في شخصية **نوال السعداوي**، المرأة والأنثى القوية، الحازمة والعنيدة... الخ وهي الشخصية التي تحمل صفتها وملامحها وتقترن بها: الكاتبة والكتابة..

وأسمح لنفسي بالقول، إنني ككاتبة أعرف القيمة المعنوية الكبيرة للكاتبة كسلاح وللقلم كوسام.. لكن كلمات **السعداوي** زادت كثيراً من هذا الرصيد الذي أُكنه للكاتبة، إنها الكاتبة من طراز الواثقين جداً برسالة كتاباتهم، والفخورة جداً بهذا الخيار (الكتابة)، الذي لأجله طلّقت زوجها الثاني، وفُصِلت من عملها، وحوربت، وأقيمت ضدها الدعاوى.. ودخلت السجن... كيف تستشعر الكاتبة مهامها وهذا الجزء من شخصيتها؟ تقول: «**لم يبق لي من سلاح في حياتي إلا القلم. أدافع به عن نفسي، عن حريتي، وحرية الإنسان في كل مكان. لم يبق لي إلا القلم لأعبّر به عن مأساة الفقراء والنساء العبيد. ولأقول للناس إنني أكره الظلم وأحب العدل. وأحترم الإنسان ولا أنحني للسلطان مهما كان... ولا أقدّم قرابين الولاء. ولا أطبع إلا عقلي. ولا أكتب إلا رأيي.. ولا أتزين كالحريم ولا أستحم بالشامبو الأمريكي. ولا أشرب البيرة الإسرائيلية... ربما لهذا السبب كسروا بابي بالقوة المسلّحة وساقوني إلى السجن... ولم أخجل، ولكني زهوت. ألهذا الحد ترعبهم حروفي على الورق!.**

سأظل أكتب إذن أكتب. سأكتب وإن دفنوني في قبر، سأكتب وإن أخذوا القلم والورق سأكتب على الجدار، على الأرض على قرص الشمس ووجه القمر.

وحين صاح المسؤول البوليسي في السجن قائلاً: لو وجدت عندك طبنجة أهون عندي من الورقة والقلم، قررت أن يكون عندي قلم وورقة قبل أن ينتهي النهار... أردت القلم والورقة بكل جزء من حياتي.. وقبل أن تغلق الشاويشة علينا باب العنبر الساعة الرابعة تماماً بعد ظهر ذلك اليوم كان معي القلم والورق. ليس إلا ورق تواليت، لكن حروفي واضحة وأستطيع أن أقرأ ما أكتب»...(١٨)

بهذا الحب والشغف والتقديس للقلم والورقة، لا تكتفي **نوال السعداوي** بإعطاء قيمة معنوية كبيرة لها وحدها فقط، وإنما لكل من يحلم دوماً بالكتابة ورفع الصوت أو نقل المشهد... هذه الكتابة تستقبلها نوال السجينة بنهم وشوق، فتنسى أنها في السجن(١٩) وتكتب ما تعيش.(٢٠) وهنا الأهمية؛ لأنها تمقت أولئك الذين يكتبون ما لا يعيشون ويفعلون في الخفاء ما لا يستطيعون فعله في العلن.. ورغم كل ذلك تقول: «**ما زلت غير راضية عن كتاباتي لأنني لا أكتب بشكل حر، أو بالحرية التي أريدها. عشت في عالم يفضّل الكذب في كل شيء**»...(٢١)

صورة تمسك نوال بالكتابة وهي داخل السجن لا تختلف أبداً عن نظرتها لها وهي خارج السجن.. في منزلها عندما جاء البوليس للقبض عليها، وكسروا الباب وبعثروا محتويات الشقة، لمحت أحدهم يمسك الرواية التي كانت تعمل عليها فهتفت بغضب: هذه رواية.. أتركها.. لا تلمسها... لكنه دسّها في حقيبة معه... فصرخت بغضب: هذه جريمة أخرى .. كيف تنتزعوا مني روايتي! لا شأن لكم بها![٢٢]

جزع **نوال السعداوي** على بعثرة أوراقها وكتابتها، يشبه إلى حد ما جزع الأم الملهوفة من مكروه يصيب ولدها.. ولكن المفارقة أن آخر شيء من الممكن أن يفكر فيه رجل بوليس هو مكانة تلك الأوراق عند صاحبها أو صاحبتها...

«لم يبق لي من سلاح في حياتي إلا القلم» و**«ساظل أكتب»** جملتان تلخصان حميمية هذه العلاقة القوية بين نوال ونتاجها الإبداعي أو التأليفي أو البحثي، وهو الأمر الذي يفضي بها نهاية المطاف.. بعد الخروج من السجن.. وبعد كتابة مذكراته ويومياته.. وبعد سنوات على نشر العمل، للقول: «بعد أن خرجت من السجن كان أمامي طريقان: طريق الأمن والرخاء والحصول على الجائزة ولقب الكاتبة الكبيرة. أو الطريق الآخر الصعب الذي قادني إلى السجن من قبل. واخترت الطريق الثاني.

منذ الطفولة لا أطيع إلاّ عقلي أو الصوت المنبعث من أعماقي، لا تستسلمي ولا تسيري في مواكب النفاق. لا تكوني واحدة من القطيع أو موظفي البلاط. كوني نفسك.

«وليس في العالم قوة تستطيع أن تسلب مني القلم»![٢٣]

وربما تتسع صفحات أخرى لتحليل شخصية نوال الكاتبة، ولتحليل أبعاد وأسرار هذا العلاقة الرائعة جداً بينها وبين ما تكتبه.. إنها تتكلم عن الكتابة بوصفها عملاً جباراً، مقدساً، رائعاً، مريحاً، وسلاحاً... الخ بحيث تنتقل عدوى حماسها وافتخارها إلى بقية القراء.. والكتاب..

نوال السعداوي: الزوجة والأم

ثمة نقطة أخيرة أصل إليها في نهاية هذا البحث وهي موضوع التوقف عند شخصية **نوال**، الإنسانة، الزوجة.. والأم..؛ إذ ربما كان الاستغراق في قراءة مكامن القوة والصلابة والتحدي والعناد والإرادة يمنع الالتفات إلى الصورة الأصل والأساس: الإنسانة.

فبرغم أنها امرأة تكره الضعف الأنثوي ولا تضع مساحيق التجميل ولا تصبغ شعرها الأبيض، إلا أنها لا تفتقد أبداً ملامح الإنسانة البسيطة، الزوجة والأم...

وفي أسطر قليلة جداً بين سطورها الكثيرة عن مذكرات السجن، تصل نوال إلى الحديث عن زوجها، الذي لم يطلب منها التخلي عن كتاباتها ولم يلغ وجودها كما فعل اثنان من الأزواج قبله، فتصفه ببضعة أسطر، وهي قمة في الحب والرقّة والاعتراف بجمال روحه وشخصيته.. ورغم أن القارئ لا يعرفه إلا أنه سيحبه على وصفها له. تقول عنه:

«**الرجال من حوله يبدون في عينيي ثرثارين كالأطفال، وهو صامت. لكن إذا ما تكلم صمت الآخرون. قضى في السجن ثلاثة عشر عاماً من شبابه. متواضع إلى حد العظمة، وعظيم إلى حد التواضع. قوي إلى حد الرقة والشفافية. رقيق إلى حد الصلابة والقوة الحقيقية. نادر كنسمة هواء نقي في سجن القناطر. كرأي صادق شجاع في مجتمع مغشوش...**»(٢٤)

وإذا كانت مشاعرها لزوجها لا تختلف كثيراً عن مشاعر الزوجات تجاه أزواجهن، فإنها في مشاعر الأمومة لا تختلف أبداً عن ركب الأمهات وعواطفهن ودموعهن حتى. جملة قليلة الكلمات، اعترفت بها **نوال السعداوي** وهي تصف حالتها بعدما أفرج عنها وعادت إلى بيتها، ولم يكن ابنها وابنتها موجودين لحظتها فاختبأت لترى حالهما.. وعيونها المتطلعة إلى أمكنتها الخالية، وقد حوّل الحزن العميق والمكتوم عيون الأطفال إلى عيون عجوز! قالت: «**لو رأيت عيونهما هذه لانهزمت داخل السجن**».

هل سيلغي حب الأمومة لديها كل مشاعرها السابقة وشخصيتها القوية والصلبة، لتنهار وتتراجع؟ لم تعدم الكاتبة إيجاد حل كما تعودت دائماً، قالت: «**لكن خلايا عقلي دفنت ملامحها في مكان لا أدريه، وخيالي عجز أن يرسم الحزن في عيونهما.. وناديتُ عليهما... وكانت لحظة أخرى خارج الكون والحقيقة. التفت ذراعي حول الجسمين اللذين لم يعودا جسمي طفلين.. والعيون التي لم تعد عيون أطفال..** »

وفي العناق رأيت اللمعة تعود إلى سواد العين، والطفولة كلها تعود، ومعها الحنين وشوق ثمانين عاماً من البعد والألم العميق، وشيء في أعماقي يقول: انتهت هذه المرحلة من حياتي والآن بدأت مرحلة أخرى.

وينتهي بحثي أنا أيضاً، لتبقى كلمات لا تمحى في ذهني.. «**لم يبق في حياتي من سلاح.. إلاّ القلم.. وسأظل أكتب..**»

وربما تعابير أخرى، تثبت فعلاً أن الكتابة رسالة تصل وتبقى...

الهوامش

(١) نوال السعداوي، مذكراتي في سجن النساء، ص ١٩٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٧٦.
(٤) المصدر نفسه، ص١٧.
(٥) المصدر نفسه، ص٦٩.
(٦) المصدر نفسه، ص ٣٠.
(٧) المصدر نفسه، ص ٢٢٣.
(٨) المصدر نفسه، ص ١٣٧–١٣٨.
(٩) المصدر نفسه، ص ١٣٨.
(١٠) المصدر نفسه، ص ١٣٨.
(١١) المصدر نفسه، ص١٥٦.
(١٢) المصدر نفسه، ص١٢.
(١٣) المصدر نفسه، ص ١٦.
(١٤) المصدر نفسه، ص ١٢٨.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٣١.
(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٩.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٤٧.
(١٨) المصدر نفسه، ص ١٣–١٤.
(١٩) المصدر نفسه، ص١٥٧.
(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٦.
(٢١) المصدر نفسه، ص ١٦.
(٢٢) المصدر نفسه، ص٢٨.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ٨.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٨.